الحصار الفرنسي على الشرق الجزائري من خلال وثائق أرشيفية (1242ـ 1246هـ/ 1827ـ 1830م)

د/ دوبالي خديجة، جامعة تيارت

تعد الوثيقة[1] الأرشيفية من المصادر الأساسية، ومن الأصول الضرورية في الدراسات التاريخية، تكونت من خلال الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية، مثل المراسلات السياسية المتمثلة في الرسائل[2] والتقارير[3].

ومن بين هذه الوثائق، نذكر مجموعة الرسائل، المحصورة في إطارها الزماني ما بين 1230ـ 1246هـ الموافق لـ 1816ـ 1830م. أرسلت من طرف محمد جاقر باي[4] إلى عمر باشا[5]، ومن منماني[6] وأحمد باي[7] إلى حسين باشا[8].

جمعت هذه الرسائل ضمن ملف الوثائق العثمانية تحت رقم تسلسلي: "1642" بالمكتبة الوطنية بالحامة، قسم المخطوطات. وعالجت مواضيع شتى منها ما كان سياسي واجتماعي، ومنها ما كان ثقافي واقتصادي. ودراستنا هذه لن تخوض في كلّ المجالات بل خصصناها لدراسة جزئية منها، تضمنت هذه الأخيرة "الحصار الفرنسي المضروب على السواحل الشرقية 1242ـ 1246هـ/ 1827ـ 1830م".

وما هو مهم في هذا الموضوع هو تلك المعلومات التاريخية المتوفرة في هذه الوثائق، إذ تعتبر جديدة إذا ما قورنت بتلك المتوفرة في مجموعة المصادر والمراجع؛ فهذه التقارير رسمت لنا صورة واضحة المعالم حول السبل والوسائل التي واجهت بها السلطات الحاكمة على مستوى البايلك الأزمة التي اصطنعتها الحكومة الفرنسية.

لقد حاولت السلطات الفرنسية استغلال خسارة الجزائر لمعظم وحداتها العسكرية البحرية في موقعة نافرين 1242هـ/ 1827م لتنفيذ مشروعها الرامي باحتلال الجزائر، ولكن قبل تنفيذه كان لا بد لها من جس نبض المجتمع الدولي حول قضية الاحتلال هذه بفرضها للحصار البحري مدة ثلاث سنوات.

فبالإضافة إلى محاولة معرفة رأي الدول الإسلامية والأوروبية حول مبادرة فرنسا في احتلال الجزائر، كان للحصار المفروض على السواحل الجزائرية أهداف واضحة المعالم، سوف تمكن فرنسا من تهيئة الأوضاع لعملية الاحتلال.

كان هناك إجماع لدى معظم الباحثين أنّ ما وثر العلاقات الجزائرية الفرنسية هو ما اصطلح عليه بـ "حادثة المروحة"، هذه الأخيرة نشبت ضمن لقاء خص به الداي حسين القنصل الفرنسي بيار دوفال[10] سنة 1242هـ/1827م.

فقد اقتضت التقاليد الدبلوماسية المتعارف عليها في تلك الحقبة التاريخية أن يتقدم كلّ قناصل الدول الأوروبية بتهانيهم لداي الجزائر بمناسبة الأعياد الدينية، من بين هؤلاء القنصل الفرنسي دوفال، الذي تقدم إلى الداي حسين بتهانيه بمناسبة عيد الفطر المبارك الذي تزامن مع الخسارة العسكرية والمعنوية للجزائر والخلافة العثمانية في موقعة نافرين، هذا ما جعل الداي حسين منهارا، ممّا سمح للقنصل دوفال باستفزاز الداي خلال النقاش الذي دار بينهما.

ومن بين المواضيع التي أثير نقاشها أثناء المقابلة، قضية تسليح الباستيون[9]، هذا الأخير كان من بين أهم الدوافع التي أزمت الوضع بين الجزائر وفرنسا[11]، ذلك أنّ هذه الأخيرة ضربت بعرض الحائط بنود الاتفاقية التي تقضي بمنع تسليح الباستيون تحت أي ظرف من الظروف، إلاّ أنّ السلطات الفرنسية الوصية على هذه المؤسسة الممثلة في شخص ألكسندر دوفال[11] استغلت الأوضاع الحساسة التي كانت تمر بها الجزائر، لتقوم بتحصينه، فوضعت أربعة عشر مدفعا من حديد ومدفعين من نحاس ومنجقين، يقوم على حراستها وصيانتها أكثر من مائة جندي .

رد القنصل الفرنسي على الاتهامات الموجهة لحكومته معللا بأنّه ارتكبت عدة عمليات سطو وسرقة على مخازن الباستيون، ممّا أجبر المسؤولون على اتخاذ إجراءات أمنية لدرعهم[13]. ثم أضاف بأنّ هذه الإجراءات عبارة عن إستراتيجية اعتمدها معظم ممثلي الدول من أجل إخافة وإبعاد اللصوص؛ لكنّ الباشا حسين لم يقتنع بهذا الطرح المزيف، لهذا أمر أحمد باي بالتحقيق في المسألة[14].

تنفيذا لأوامر الباشا كلف أحمد باي "المركانتي"[12]، بتقصي الأحداث وتقديم تقرير مفصل حول القضية؛ فكانت نتائج البحث أنّه ما كان موجود في الباستيون هي مدافع حقيقية، وقد تم بالفعل تسليح ما تعداده 100 رجل يقومون على حراسته؛ أمام هذا الوضع الخطير والحساس اتخذ الداي إجراءات صارمة ضد الموقع والقائمين عليه، فتم إغلاقه وطرد كلّ من كان موجودا فيه.

لهذا السبب، ولأسباب أخرى تطرقت لها جل المصادر والمراجع، نشبت بين الجزائر وفرنسا قطيعة في كلّ العلاقات والمعاملات وعلى كلّ الأصعدة، السياسية والدبلوماسية والاقتصادية؛ نتيجة لذلك قررت فرنسا فرض حصارا بحريا على كلّ السواحل الجزائرية بما فيها الشرقية، تأديبا للداي وحكومته على "حد زعمها".

أمام هذه المستجدات الخطيرة حرر أحمد باي عريضة بتاريخ 19 من ذي القعدة سنة 1242هـ/14 جوان 1827م يخاطب من خلالها كبار الشخصيات، والقائمين على الجهاز العسكري، بضرورة التحلي باليقظة، وتوعية الرعية بحساسية الوضع الذي تعيشه الجزائر عامة وبايلك الشرق على وجه الخصوص.

إذ يستنتج من نص هذه والعريضة أنّ السلطات الجزائرية كانت تتحسس وقوع أحداث وردود فعل عدوانية من طرف السلطات الفرنسية، فقد تأكد لدى الداي حسين فكرة، أنّ فرنسا لن تقف عند هذا الحد بل سوف تحاول إعلان الحرب ضد الجزائر آجلا أم عاجلا.

وبالرغم من العدوان الفرنسي على سيادة الجزائر، إلاّ أنّ السلطات على مستوى بايلك الشرق والممثلة في شخص أحمد باي كانت واعية بالتزاماتها الدبلوماسية والإدارية. فقد أكد الباي أحمد على ضرورة التحلي بالمسؤولية وعدم التعرض للجالية الفرنسية المقيمة على أراضي البايلك.

هذا ما تثبه المعلومات التاريخية الذي تضمنتها إحدى الرسائل الموجودة في الملف العثماني، إذ ورد فيها ما نصه: "....**الا تعتدوا على النصارى الفرنسيين**....."، كما خصهم "....**بأمان الله لا ينالهم مكروه وإن أرادوا الانتقال إلى بلادهم برضاهم وطواعيتهم فلا يمنعهم عن ذلك أحد ولا يتعدى عليهم، ويرفعون مالهم وأمتعتهم عن آخرها بحيث لا يضيع لهم شيء أصلا**....."[15].

فمن خلال هذا النص التاريخي تأكدت أمامنا معطيات مهمة قد أنكرتها الكتابات الفرنسية وحتى الجزائرية، من بينها:

- خيرت السلطات الجزائرية الرعايا الفرنسيين بين البقاء أو الرحيل.

- في حالة بقائهم تضمن لهم السلطات حسن المعاملة، كما ضمنت لهم أرواحهم وأموالهم.

- أمّا في حالة اختيارهم للرحيل فإنّ السلطة الحاكمة تضمن لهم سلامة أرواحهم، كما أصدرت أوامر صارمة بعدم التعرض إلى ممتلكاتهم.

وبتاريخ 29 ذي القعدة من سنة 1242هـ/جوان 1827م، أرسل أحمد باي تقريرا إلى الداي حسين، يعلمه من خلاله وصول سفينتين فرنسيتين "سكونة وكربيط" إلى مرسى عنابة، كانت مهمتها حمل كلّ الرعايا الفرنسيين المتواجدين على مستوى المدينة؛[17] وهذه المعلومات وردت إلى الباي أحمد بناءا على تقرير رفعه إليه كلّ من "المركانتي" وعلماء المدينة.

وأكد في التقرير نفسه أنّه تم إصلاح العاطل من الآلات الحربية، وتشديد الحراسة على مداخل مدينة عنابة ومخارجها ترقبا لردود فعل عدوانية من طرف فرنسا، كما حاول طمأنة الباشا حسين حول الأوضاع الأمنية في المنطقة، التي قال عنها بأنّها جد مستقرة[18].

كما تكلم في التقرير على مبادرة سلام سعى إليها أحد الأوروبيين، هذا الأخير نعته الباي بـ "الرومي"، فذكر بهذا الصدد: "...**إن وقع الصلح على وجه الرضا والطوع فيأخذ خط الرومي ويبعثه لنا نوجهه اليكم وان امتنع الرومي من ذلك فياتينا الرجل مربوطا حتى نبلغه لحضرتك السعيدة**..."[19].

أمّا بتاريخ 26 من ذي الحجة سنة 1243هـ/1827م، أرسل أحمد باي أوامر إلى "المركانتي" مفادها إطلاق المدافع على كلّ سفينة فرنسية تظهر على السواحل الشرقية بدليل هذا النص التاريخي المستنبط من أحد الرسائل فجاء فيه ما يلي: "...**اذا ابصرتم شقف قرصان قاصدا عنابة فاعملوا له الفمادة من بعيد فادا لم يرجع الى ورائه وبلغ حد الرمية فارموه بالمدفع بالكور واغرقوه واهلكوه...**"[20].

من خلال ما ورد في هذا النص التاريخي نستنتج ما يلي:

- لا يتم إطلاق المدافع إلاّ على السفن الحربية التي خصها بالذكر.

- لا يكون ذلك إلاّ على بعد مرحلتين من مكان توقفها.

- كما لا يتم ذلك إلاّ بعد خطوات، فأمّا الأولى فيشيرون إليهم بـ "الفمادة"، ثم الثانية التي تتضمن إطلاق المدافع من غير "كور"، فالخطوة الأخيرة وهو رميها بـ "الكور".

وما يمكن ملاحظته على هذه الوثائق التي تناولت الحصار الفرنسي على السواحل الشرقية أنّها انفردت ببعض المعطيات التاريخية التي غفلت عنها جل المصادر والمراجع التاريخية الفرنسية منها والجزائرية، وبالتالي فقد رسمت لنا الخطوط العريضة لمواجهة إحدى المناطق الجزائرية لهذه الأزمة والتدابير المتخذة من أجل السيطرة على الأوضاع .

وما يمكننا استخلاصه أنّ ما تم مناقشته أثناء اللقاء الذي ضم الداي حسين بالقنصل الفرنسي بيار دوفال، وما ترتب عنه من طرد الداي للقنصل الفرنسي لم تكن بالعوامل المباشرة للاحتلال، وإنّما كانت سببا في فرض الحصار، والمفارقة التاريخية بين الأمرين واضحة تماما، وهذه هي المغالطة التاريخية التي وقعت أو أوقعت جل الباحثين والدارسين لتاريخ الجزائر الحديث والمعاصر في وصف حادثة المروحة بالسبب المباشر للاحتلال الفرنسي للجزائر. كما أنّ جل الدراسات ركزت على موضوع الديون وأغفلت دور الباستيون في تفعيل مجريات الأزمة بين الطرفين.

الهوامش:

1 - **الوثيقة:** في اللغة العربية "يشكل الجدر الثلاثي (و ث ق) مشتركا لفظيا لمعان عدة، ولكن الأبنية الصرفية الخاصة بمعنى الوثائق تشتق من الفعل (وثق) ماضيا، (يوثق) حاضرا، ومصدرهما (الثوتيق) الذي يعني تسجيل المعلومات وتحريرها حسب طرق علمية متفق عليها. ولعل اللفظة السائدة في اللغات الأجنبية، الانجليزية بخاصة، المقابلة لمعنى الوثيقة هي " Document ". ينظر: حنش ادهام محمد، الخط العربي في الوثائق العثمانية، دار المنهاج، ط:1، 1418هـ/1998م، ص ص: 131، 132.

2 - لقد احتلت الرسائل في كلّ عصر حيزا كبيرا من الاهتمام. ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى ديوانية واخوانية، والمجموعة قيد الدراسة تصنف ضمن الرسائل الديوانية، هذه الأخيرة اختصت "بمصالح الأمة وقوام الرعية"، وهي بصورة عامة "تختص بتصريف شؤون الدولة. ينظر: طاهر محمد كريم، من أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنيين السابع والثامن، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1993م، ص: 165.

3 - **التقارير**: مفرده تقرير. وهو عرض للحقائق الخاصة بموضوع معين، أو مشكلة معينة، عرضا تحليليا بطريقة سلسة مبسطة. ينظر: إعلاوي نزيه و إشتيية حفظي، أساسيات في اللغة العربية قواعد وتطبيق، عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع، ط:1، 1420هـ/1999م، ص ص: 105، 106. ويمثل التقرير خاصية من خصوصيات الوثائق العثمانية، يحرره الحاكم

بصورة مفصلة حول موضوع من الموضوعات ليقدمه إلى الحاكم الأعلى. ينظر: حنش ادهام، المرجع السابق، ص: 142. وكل هذه المفاهيم قد اشتملت عليها الرسائل التي هي قيد الدراسة.

4 - **جاقر باي** (1229- 1232هـ/1814- 1818م): هكذا ورد اسمه في الرسالة. وهو معروف لدى معظم المؤرخين بـ شاكر محمد. أصله من أزمير. دام حكمه أكثر من أربع سنوات. ينظر: بن العنتري محمد صالح، فريدة منيسة في حال دخول الأتراك واستيلائهم على أوطانهم (تاريخ قسنطينة)، مر وتق وتع: بوعزيز يحي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، د ط، 1991م، ص ص: 81، 82. ومن سلبيات حكمه أنّه لم يسيطر على الجيش الانكشاري الذي خرج على طاعته، وعندما زادت الشكاوى من الرعية أمره الداي بقتل بعض قادة الجيش، لكنّه رفض، فكان ذلك سببا في عزله. ينظر: مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الأخيرة، تح: حساني مختار، الجزائر: منشورات دحلب، د ط ، د س ط، ص: 39.

5 - **عمر باشا** (1230- 1232هـ/ 1815- 1817م): كان على رأس الجيش لمدة طويلة. رفض منصب الحكم مرتين، ولكنّه في المرة الثالثة لم يستطع الاعتذار. ولد في ماتلان من عائلة يونانية. قدم إلى الجزائر عن عمر يناهز 33 سنة. ترقى في سلم المراتب العسكرية بسرعة. أهم حدث تاريخي وقع على عهده، الهجوم الانجليزي على مدينة الجزائر سنة 1232هـ/1817م، قتل خنقا في السنة نفسها. ينظر:

Pierre Boyer, Alger à la vielle de l intervention française, Monaco : imprimerie national s, A, 1er trimestre, 1964, PP : 94, 95

6 - **محمد منماني** (1240- 1241هـ/ 1824- 1826م): تركي قديم في قسنطينة. تولى أمر البايلك وهو عجوز هرم، وكان قبل هذا قد شغل بعض المناصب من بينها: قائد جلب الغنم، قائد الشعير، ثم بعدها خليفة. لا يحسن العربية ولا يتحدثها إلاّ بصعوبة بالرغم من أنّه عاش في قسنطينة سنوات طويلة. بعد آدائه للدنوش وقع عليه غضب وسخط من الداي، فعزله عن منصبه، ووضعه تحت الإقامة الجبرية . ينظر: بن العنتري صالح، المصدر السابق، ص: 29.

7 - **حسين باشا** (1233- 1246هـ/1818- 1830م):هو حسين خوجة بن علي، ولد ببورلة من بلاد آسيا الصغرى سنة 1178هـ/1761م، وقيل سنة 1181هـ/1764م. ينتسب إلى عائلة تركية. اكتسب مهارة حربية من والده في صنف الطبجية (المدفعية)، ممّا سهل عليه مهمة الالتحاق بإحدى المدارس الحربية باسطنبول. تقلد عدة مناصب آخرها منصب الداي واستمر فيه إلى أن سقطت الجزائر على يد الاحتلال الفرنسي سنة 1246هـ/ 1830م.

8 - **أحمد باي** (1242- 1246هـ/1826- 1830م): هو الحاج أحمد بن محمد بن الشريف، ولد في منزل الأسرة الذي يدعى دار أم نون بقسنطينة. وقد تضاربت الروايات التاريخية حول تاريخ مولده. كرغلي الأصل.اشتغل منصب خليفة بايلك الشرق إلى أن ترقى إلى منصب الباي. عرف بحزمه وصرامته، وجهاده ضد الاحتلال الفرنسي رغم كلّ الإغراءات التي قدمها له هذا الأخير. توفي في مدينة الجزائر سنة 1266هـ/1860م، ودفن في مقبرة ضريح عبد الرحمان الثعالبي.

9 - الباستيون: كلمة تركية تستعمل للدلالة على المكان الذي بنى فيه الفرنسيون بعض المساكن لإيواء صيادي المرجان، كما ضم مخازن لحفظ هذه البضاعة. ينظر: قنان جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1997م، ص: 91. أمّا حسين باشا فوصفه بأنّه مبنى صغير يمكن أن يقيم فيه ثلاثة إلى خمسة أشخاص. ينظر:

Kuran Erment, La lettre du dernier dey d Alger au grand vizir de l empire Ottomane, Revue africaine, N : 96, 1952, Pm 191.

العثمانية، رقم: 1642، الجزائر: المكتبة الوطنية، قسم المخطوطات.

11 - **بيار دوفال**: ابن مترجم فرنسي. كان يتكلم اللغة العربية والتركية بفصاحة. كتب عنه القائد كران في تقريره الذي سلمه للشرطة الفرنسية بمرسيليا سنة 1239هـ / 1825م، أنّه كان غير مرغوب فيه بين الأوساط الأوروبية، لأنه كان يتعامل كثيرا مع الأتراك. وصف بذلك الشخص المشبوه فيه. ينظر: أجيروروبير شارل، تاريخ الجزائر المعاصر، بيروت: منشورات عويدات، ط: 1، 1982، ص: 14.

12 - **ألكسندر دوفال**: هو ابن أخ بيار دوفال. استلم مهامه في الجزائر سنة 1239هـ/ 1825م. وصف بذلك الرجل الطموح وعنصري، فقد تابع سياسة عمه بعدما توفي هذا الأخير بوباء الكوليرا سنة 1243هـ/1827م. عاد إلى الجزائر مع الحملة الفرنسية سنة 1246هـ/1830م.

13 - **المركانتي**: مصطلح تركي يطلق على من يكلفه الباي بالتحصيل الجمركي في ميناء عنابة، كما يعتبر ممثلا للتجارة الجزائرية في هذه المدينة. ينظر: ملف الوثائق العثمانية، المصدر السابق.

14 - المصر نفسه.

15 - المصدر نفسه

16 - المصدر نفسه

17 - المصدر نفسه

18 - المصدر نفسه

19 - المصدر نفسه

20 - المصدر نفسه